تطوّر القيم الجمالية في شعر المديح في صدر الإسلام

لميس محمد مأمون أخرس، د. عبد الكريم ضاهر

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة إدلب

الملخّص:

إنّ القيم الجماليّة هي نتاج تفاعل الفنّان مع واقعه السّياسيّ والثّقافي والاجتماعيّ، حين يعبّر عن وعيه لأشكال هذا الواقع تعبيراً فنّيّاً، وتُظهر لنا قصيدة المديح في مرحلة صدر الإسلام التّطوّر الواضح الذي أحدثه الإسلام على القيم المدحيّة في العصر الجاهليّ، والذي كان له أثره في عكس صورة المثال الأعلى للجمال، المتمثّل في شخصية الممدوح، كما رآها الشّعراء حينها، فما يُقال في هذا الشعر من صفات ما هو إلّا مرآة للواقع وانعكاس عنه، وهذا ما سنؤكّد عليه من خلال دراستنا لشعر هذه المرحلة، وبيان أثر الإسلام في نظرة العربيّ للجمال.

الكلمات المفتاحيّة: تطور القيم الجماليّة، قصيدة المديح، شعر صدر الإسلام.

Aesthetic values in praise poetry in the early stage of Islam

Lamees Mohmmad Ma'moun Akhras, D. Abd Alkarem Daher
Department of Arabic Language - the Faculty of Arts and Humanities
Idlib University

Abstract:

Aesthetic values are the product of the artist's interaction with his political, cultural and social reality, when he expresses his awareness of the forms of this reality in an artistic expression. The highest example of beauty, represented in the personality of Al-Mamdouh, as the poets saw it at the time, what is said in this poetry of qualities is only a mirror of reality and a reflection of it, and this is what we will emphasize through our study of the poetry of this stage, and the statement of the impact of Islam on the Arab view of beauty.

Keywords: the development of aesthetic values, praise poem, early Islam poetry.

المقدمة: تُعدّ الدّراسات الجماليّة حديثة العهد في ميدان البحوث الأدبيّة، إذ يبحث علم الجمال في أحكام الذوق والإبداع الفنّيّ والنقد الجماليّ، كما يحدّد أبعاد الموضوع الجماليّ طبيعيّا كان أم فنّيّاً، والعلاقة بينهما، وعلاقة كلّ منهما بالإنسان.

والقيم الجمالية هي إحدى تجليّات الوعي الجمالي المرتبط بالواقع السّياسيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ، إذْ يعبّر عنه، ثمّ يظهر صداه في القيم الجمالية.

والمديح من أشهر الأغراض الشعريّة، يظهر فيه تصوّر العربيّ عن القيم الإيجابيّة في مرحلة ما من حياة الأمة، وقد خصّ فيها الممدوح ليظهره في أبهى صوره الحسّيّة والمعنويّة، في تعبير واضح عن القيم الجمالية التي تتجلى في شخصية الممدوح.

وتأتي القيم الجمالية في قصيدة المديح في صدر الإسلام لتعكس أثر ظهور الإسلام في الشّعر العربي، وترصد التّغيّرات التي طرأت على القيمة الجمالية خلال انتقالها من العصر الجاهليّ إلى صدر الإسلام.

كما صوّرت التّطوّر الذي ألمّ بالذّهنيّة العربيّة في نظرتها للممدوح المثال، وكيف اختلفت رؤيتها لهذا الممدوح بفعل ظهور الإسلام.

هدف البحث: يهدف البحث إلى معرفة القيم الجماليّة التي مدح بها شعراء هذا العصر ممدوحيهم، وبيان أثر تلقّيهم للإسلام في تغيّر الوعي الجماليّ عندهم، وكم أحدث هذا التلقّي من فروقات في إفراز القيم.

منهج البحث: يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي في تحليل النصوص الشعريّة، واستقراء القيم الجماليّة فيها، بالإضافة إلى تحليل الظروف والأحداث التي عاينها الشعراء وتأثروا بها بعد ظهور الإسلام، والتي أفرزت الوعي الجماليّ.

وقد استعان هذا البحث ببعض الدّراسات السّابقة أهمّها كتاب الدكتور وهب روميه: (بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي، قصيدة المديح نموذجاً) إذْ

استعنت بـه فـي دراسـة القيم المدحيّة الدّارجـة فـي العصـر الجـاهلي وصـدر الإسـلام، كمـا استفاد البحث من كتاب الدكتور حسين الصّيق: (مدخل إلى الفكر الجمالي عند العرب المسلمين) في تعريفه بالقيم الجمالية التي طرحها الفكر الإسلاميّ.

القيم الجماليّة في شعر المديح في مرحلة صدر الإسلام:

مُنِحت الدّراسات الجماليّة التي تُعنى بدراسة النّتاج الأدبيّ أهميّةً كبيرةً في رصد المفاهيم الجماليّة التي عاينتها الأُمّة في زمن ما، كما كان لها أثرٌ كبيرٌ في الكشف عن المضامين الجماليّة التي تقف وراء الإبداع الفنيّ والتّذوّق الجماليّ.

تُعرَّفُ القيمةُ بأنّها (ما يُعلّق عليه الإنسان أو مجموعة من النّاس أهميّة كبرى من حيث قابليّته ليكون مبدأ من مبادئ السّلوك الأخلاقيّ أو الإيمان الدّينيّ أو الفلسفيّ)[1]

وترتبط الأفكار الجماليّة بالوجود الاجتماعيّ (إذ من الواضح تماماً وجود علاقة حيّة بين الأفكار الجماليّة وبين الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعيّة، كالسّياسة والاخلاق ونمـط الحيـاة، وكـذلك أنـواع الفـنّ المختلفـة ومجـالات الإنتـاج الاجتمـاعيّ ذات العلاقـة بالقضايا الجماليّة)[2]

ومـن المفـاهيم الجماليّـة الإيجابيّـة التـي تجلّـت فـي أدبنـا العربـي مفهـوم الجميـل والجليل والبطوليّ، وفيما يلي تعريف موجز لكلّ منها:

1/ الجميـل: ويعدّ من أهم المفاهيم التي شغلت التّفكير الفلسفيّ عبر التّاريخ، وهو في الفلسفة العربيّة يقدّم مفهوم الله على مفهومي الكون والذات، ويفهمهما من خلاله، وهي معرفة فائية تؤدي إلى معرفة الله عزّ وجلّ، وهي سبيل السّعادة الأبديّة.[3]

يعرّف التّوحيديّ الجمال المادّيّ تعريفاً يقوم على مبدأ الاعتدال (فالجمال المادّيّ ذو صفات قائمة في الأشياء، هي التّناسب بين الأجزاء، والكمال فيها من شكل وهيئة ولون، ومجموعها الجمال، فإذا ما توفّرت هذه الصّفات في شيء ما كان جميلاً)[4]

أمّا مفهوم الجمال عند الفارابي (339 هـ) فيرتبط عنده بمفهوم الكمال، يقول: (الجمال والبهاء والزّينة في كلّ موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل ويبلغ استكماله الأخير)[5]

ويربط الغزالي (505 هـ) في فلسفته الجماليّة بين الجمال والأخلاق، (ويصنّف الغزاليّ الجمال الذي لا يُدرك بالعين فيذكر الخلق الخيّر والعلم والسّيرة، والأخلاق الجميلة التي يقصد بها العلم والعقل والعفّة والشّجاعة والتّقوى والكرم والمروءة وسائر أفعال الخير التي تدرك بنور البصيرة الباطنيّة)[6]

أكّدت الفلسفة العربيّة على ارتباط مفهوم الجميل بكمال الأخلاق، وبهدف سامٍ يسعى لمعرفة الذّات والكون من خلال معرفة صفات الله تعالى وأفعاله.

2/ **الجليل:** هو ما عبّر عن صفات السّطوة والقدرة والكبرياء والجبروت والاستيلاء، وتصبّ هذه الصّفات في صفة عامّة هي القهر، فالجليل عظيم وماجد وقاهر أيضاً، قاهر للذّوات التي تتلقّاه، فالعظمة والمجد والكمال من صفات الجلال الذاتيّة، أمّا القهر فهو من الصفات الناجمة عن العلاقة بين الجميل والمتلقّي.[7]

يرى الفارابي أنّ (الكمال هو الجوهر في الجلال، فلا وجود للجلال في غياب الكمال أو فيما أصابه نقص ما، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ العظمة والمجد من أهمّ السمات التي يتميّز بها الجليل، ...، أي أنّ العاديّة والضّعة والابتذال والضّآلة والتفاهة من السمات التي لا يمكن أن يتّسم بها الجليل)[8]

ويرى الفارابي أيضاً أنّ (الجلال الإلهيّ فوق كلّ جلال، لأنّ جوهره، وهو الكمال الإلهيّ المطلق، فوق كلّ كمال)[9]

3/ البطوليّ: لقد كان لمفهوم البطولة عند العرب شأن كبير لِمَا يتمتّع به صاحبها من سمات نفسيّة تعبّر عن القوّة والشّجاعة (والبطولة في اللّغة هي الغَلَبة على الأقران، وهي غلبة يرتفع فيها البطل عمّن حوله من النّاس العاديّين ارتفاعا يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً)[10]

ويستمرّ التّاريخ العربيّ بتقديم أعظم الأمثلة عن البطولة، فكان لمرحلة ظهور الإسلام تعريفها الجديد للبطولة، فلم تعد البطولة الحربية بطولة قبَليّة ينتصر فيها البطل لقبيلته، ظالمة كانت أم مظلومة، بل أصبح معيار البطولة الإيمان، وقُسمت ساحة المعركة إلى مسلمين وكافرين، ووقف العربي المسلم كتفاً إلى كتف الأعجميّ المسلم في قتال المشركين، وحلّت مبادئ الحقّ والعدل مكان الأخذ بالثّأر.

ولا ننسى أنّ البطولة الخُلُقيّة التي أقرّها الإسلام تكمن في جهاد النّفس على الطّاعة وإبعادها عن الوساوس والمحرّمات.

ومن المُلاحَظِ أنَّ القيم الجماليّة قد شهدت نوعاً من التّطوّر بين العصر الجاهليّ ومرحلة ظهور الإسلام، يتمثّل هذا التّطوّر بنوعين من القيم: **قيم تقليديّة:** ارتبطت بالبيئة العربيّة في شبه الجزيرة في العصر الجاهليّ، وصدرت عنها، **وقيم إسلاميّة:** جاءت وليدة التعاليم الإسلاميّة، وعبّرت عن متطلّبات المرحلة الجديدة.

1- القيم التّقليديّة

لقد كان لظروف الحياة الطّبيعيّة والاجتماعية التي عاشها العرب في شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام أثرها في تكوّن القيم الجماليّة، ورسم شخصية الممدوح المثال، فقد عاين العربيّ ظروف الطبيعة الصّحراوية الصّعبة بشحّ مياهها واتّساع فلواتها، بالإضافة إلى الواقع السّياسيّ القائم على النّظام القبليّ الذي يعتدّ فيه بقبيلته، ويرجع في شؤونه إليها، ويذود عنها.

وقد دارت أهمّ هذه القيم المدحيّة في الشّعر الجاهليّ حول قيم الكرم والشّجاعة والنّسب الرّفيع[11]، فتبوّأت من مدائح الجاهليّين مكان الصّدارة بين القيم، تبعتها ما أعلاه العربي أيضاً من قيم الوفاء والعفة والحلم والعدل والحكمة وإغاثة الملهوف وحسن الجوار...

كما تجلّت بعض ظواهر المديح **بالقيم الدّينيّة** عند شعراء الجاهليّة حين وقفوا على السّمات الدّينيّة التي تكتنف شخصية الممدوح كما جاء عند الأعشى مثلاً في مديحه قيس بن معد يكرب، واصفاً إيّاه بالتّقوى وحسن العبادة، يقول:[12]

وَمَـــا أَيْبَلِـــيٌّ عَلـــى هَيْكَـــلٍ بَنَـــاهُ وَصَـــلَّبَ فيـــهِ وصَـــارَا
يُـــرَاوِحُ مِـــن صَـــلَوَاتِ المليـــ ـــكِ طَـــوْرَاً سُـــجُودَاً وَطَـــوْرَاً جُـــؤَارَا
بِـــأَعظَمَ مِنْـــهُ تُقًـــىً فـــي الحِسَـــابِ إذا النَّسَـــمَاتُ نَفَضْـــنَ الغُبَـــارَا

فهو كثير العبادة في اللّيالي الهادئة، دائب على صلواته كالنّاسك الذي يتعبّد في كنيسته تضرّعاً ودعاءً.

ولا بدّ أنّ هذه القيم جاءت من تأثّر الشّاعر بالمعاني الدّينيّة السائدة آنذاك من المسيحيّة واليهوديّة والحنيفيّة، وممّا سمعه أيضاً من تعاليم الدّين الإسلاميّ في أواخر حياته، ومن ذلك القصيدة التي نظمها في مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم _ إن صحَّتْ_ ومدح شرفه وأخلاقه وكرمه، وبيان التّعاليم التي جاء بها وهدى الناس إليها[13].

وقد مدح الأعشى أيضاً هوذة بن عليّ الحنفيّ بهذه القيمة رغم اختلاف ديانتهما، واعتناق الممدوح الدّيانة الحنيفيّة، فوصف هيئته ولباسه وطقوسه في العبادة حين شفعَ لمئة من بني تميم عند كسرى في يوم الصفقة،[14] ورجا بذلك ثواب الله في يوم الصّفح[15]:

مَـن يَلْـقَ هَـوْذَةَ يَسْـجُدْ غَيْـرَ مُتَّـبِـ إذا تَعَصَّـبَ فَـوْقَ التَّـاجِ أَو وَضَـعَا
لَـــهُ أَكَالِيـــلُ بِاليَـــاقُوتِ زَيَّنَهَـــا صُـــوَّاغُهَا لَا تَـــرَى عَيْبَـــاً ولَا طَبَعَـــا
وَكُـــلُّ زَوْجٍ مِـــن الـــدِّيبَاجِ يَلْبَسُـــهُ أَبُـــو قُدَامَـــةَ مَحْبُـــوَّاً بِـــذَاكَ معَـــا
سَـــائِلْ تَمِيمَـــاً بَـــهَ أَيَّـــامَ صَـــفْقَتِهِمْ لَمَّـــا رَآهُـــمْ أَسَـــارَى كُلُّهُـــمْ ضَـــرَعَا
بِهِـــمْ تَقَـــرَّبَ يَـــوْمَ الفِصْـــحِ ضَـــاحِيَةً يَرْجُـــو الإِلَـــهَ بِمَـــا أَسْـــدى وَمَـــا صَـــنَعَا
وَمَـــا أَرَادَ بِهَـــا نُعْمَـــى يُثَـــابُ بِهَـــا إِنْ قَـــالَ كَلْمَـــةَ مَعْـــرُوفٍ بِهَـــا نَفَعَـــا

إنّ تصوير الأعشى لحالة ممدوحه في لباسه وأفعاله التي تُخالف عقيدته دليلٌ على سعة ثقافته من جهة، وأنّه يتّخذ ذلك وسيلة للتّقرّب من ممدوحه من جهة أخرى.

2- قيم إسلاميّة:

كان للإسلام حين نزل على خير البشر محمّد صلّى الله عليه وسلّم أكبر الأثر في طرح منظومة جديدة من القيم والمفاهيم، فمَثَّل ظهوره في شبه الجزيرة العربية ثورة عامّة شملت نواحي الفكر والسّياسة والعقيدة والاقتصاد والمجتمع، وغير ذلك من مناحي الحياة، وأسهمت مبادئ الإسلام وتعاليمه في تغيير شكل الواقع الجاهليّ فألغت الفروق الطّبقيّة بين الأسياد والعبيد، وجعلت الناس سواسية لا يَفضُلُ بينهم إلّا التّقوى والعمل الصّالح، وطرحت مبادئ العدل والاحتكام إلى شرع الله بدل الأخذ بالثّأر والعصبية القبليّة، وأمرت بالعفة والسّتر واجتناب المحرّمات، وطاعة الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وما إلى ذلك من القيم الإسلامية التي شملت نواحي الحياة عامّة.

ارتفعت الشريعة الإسلامية عن كل ما يحطّ من قيمة النفس البشرية ويسيء إليها، وترفعت عن سفاسف الأمور ودنيئها، مميزة بين اللذة والسعادة، معتبرة أنّ الروح كلما ارتقت إلى خالقها وابتعدت عن أهواء النفس كانت أقرب إلى السعادة الحقيقية.

ومن هنا بدأنا نلمس تغيراً في وعي العربي المسلم للجماليات عامة، واختلافاً في القيم الجمالية كلِّها، وقد استطاع بعض الشعراء التعبير عن هذا التحول في موضوعاتهم الشعرية عامّة.

لقد أعلى الإسلام قيمة الأخلاق وربط الجمال بالقيمة الأخلاقية التي يؤدّيها، فاختلفت الموازين في تقييم الجميل، فمن كان جميل الشَّكل، حسَنَ الصورة كان لابدّ له أن يتحلى بحسن الخلق حتى ينال الحكم بالجميل، و(وضع الدّين معياراً جديداً لجيد الشعر أو رديئه، ذلك النهج الخلقي الذي دعا إليه الإسلام، فما اتّفق وخُلُق الإسلام ووائم روح الدين ولائمه، كان من الشّعر في الصّدارة، وما خالفه وخرج عليه كان شرّا مستكرهاً، وهو كالقبيح الذي يفسد القلب)[16].

وكـان لابـدّ أن يظهـر صـدى هـذه التّغييـرات _التـي شـملت الواقـع السّياسـيّ والاجتماعيّ والدّينيّ_ في الفنّ أيضاً بوصفه انعكاساً عن كلّ ما سبق.

وقد حافظت الحركة الشعريّة في صدر الإسلام عند بعض الشّعراء على تقليدها القديم شكلاً ومضموناً، بينما جاءت مجدّدة عند شعراء آخرين في مضمونها وبنائها الفنّيّ[17]، وتجلّى التّقليد في قصيدة المديح خصوصاً في حفاظه على القيم الجماليّة التي تضمّنتها قصيدة المدح الجاهليّة ذاتها، رغم اختلاف الأحداث المؤثّرة في الوعي عموماً، فقد (ظلّ فريق من شعراء صدر الإسلام ... يبني مدائحه على غرار مدائح الجاهليين، ويغرق في تقليدهم ومضاهاتهم، ويستعير منهم كثيراً من أساليب الصّناعة الفنّيّة، وكثيراً من الصّور الشّعريّة والقيم التّقليديّة، بل ظلّ يتصور العالم تصويراً جاهليّاً أو كالجاهليّ)[18].

وأكثر ما برزت هذه الظّاهرة عند الشّعراء المخضرمين، حديثي العهد بالإسلام، الذين اعتادوا الأسلوب القديم، وأبرزهم الحطيئة الذي أخذ الشّعر من مدرسة زهير بن أبي سلمى في الجاهليّة، ومدح كثيراً من الشّيوخ وسادات القبائل، حتى ترسّخت في نفسه أساليب المديح الجاهليّة ومعانيها، فنراه يمدح بالقيم القديمة كالكرم والشّجاعة والوفاء، كما في قوله يمدح ابن الشمّاس[19]:

نَـزُورُ امـرأً يُـؤْتِي عَلَـى الحَمْـدِ مَالَـهُ وَمَـنْ يُعْـطِ أَثْمَـانَ المَحَامِـدِ يُحْمَـدِ

يَـرَى البُخْـلَ لَا يُبْقِـي عَلَـى المَـرءِ مَالُـهُ وَيَعْلَـمُ أنَّ الشُّـحَّ غَيْـرُ مُخَلِّـدِ

كَسُـوبٌ وَمِـتْلَافٌ إذَا مَـا سَـأَلْتَهُ تَهَلَّـلَ واهْتَـزَّ اهْتِـزَازَ المُهَنَّـدِ

مَتَـى تَأْتِـهِ تَعشُـو إلَـى ضَـوْءِ نَـارِهِ تَجِـدْ خَيْـرَ نَـارٍ عِنْـدَهَا خَيْـرُ مَوْقِـدِ

تَـزُورُ امـرأً إنْ يُعْطِـكَ اليَـومَ نَـائِلاً بِكَفَّيْـهِ لَا يَمْنَعـكَ مِـنْ نَائِـلِ الغَـدِ

لا يخرج الحطيئة في الأبيات السّابقة عن العرف المدحيّ الجاهليّ رغم أنّه نظم هذه الأبيات بعد إسلامه، وفي زمن انتشرت فيه المعاني الإسلاميّة، وهذا ما يستمرُّ عليه حتى أواخر عمره عندما مدحَ سعيد بن العاص، وهو والٍ على المدينة حيث قال[20]:

وَلُـولَا أَصِـيلُ اللُّـبِّ، غَـضُّ شَـبَابُهُ كَـــرِيْمٌ لِأَيَّـــامِ المَنُـــونِ عَـــرُوفُ

إِذَا هَـــمَّ بِالأَعْـــداءِ لَـــمْ يَـــثْنِ هَمَّـــهُ كَعَـــابٌ عَلَيْهَـــا لُؤْلُـــؤٌ وَشُـــنُوفُ

ولَكـــنَّ إِدْلَاجَـــاً بِشَـــهْبَاءَ فَخْمَـــةٍ لَهَـا لَقَـحٌ فـي الأَعْجَمِـينَ كشُـوفُ

إِذَا قَادَهَـــا لِلحَـــرْبِ يَوْمَـــاً تَتَابَعَـــتْ أُلُـــوفٌ عَلَـــى آثَـــارِهِنَّ أُلُـــوفُ

فَصَـــفُّوا وَمَـــاذِيُّ الحَدِيـــدِ عَلَـــيْهِمُ وَبَـــيْضٌ كَـــأَوْلَادِ النَّعَـــامِ كَثِيـــفُ

لقد مدح الشّاعر سعيدَ بنَ العاص[21] بقيمة الشّجاعة كما أرْسَتْها التّقاليد الجاهليّة، من الطّعن بالأعداء ووصف فرسه المغوار، ولم يتناول مفهوم البطولة كما قدّمته المعاني الإسلامية من ربطها بالغاية التي تسعى إلى رضا الله ورفع راية الإسلام ودحض راية الكفر.

ومن الشّعراء الذين التزموا التّقاليد الجاهليّة في قصيدة المديح الشّاعر **كعب بن زهير بن أبي سلمى**، وكان أخوه بجيرٌ قد أسلم، فهجاه كعب لتركه دين آبائه بأبيات قليلة آذَتْ رسول الله عليه الصلاة والسلام، فتوعّده، فلمّا كان فتح مكة، أرسل بجير إليه أنّ رسول الله قد قتل كلّ من آذاه من الشّعراء إلّا مَنْ أَسلم، فما كان من كعب إلّا اللّجوء إلى المدينة وطلب الأمان من رسول الله فقبل[22]، وأنشده كعب حينها قصيدته المشهورة[23]:

بَانَـتْ سُـعَادُ، فَقَلبِـي اليـومَ مَتْبُـولُ مُتَـــيَّمٌ إِثْرَهَـــا، لَـــمْ يُجْـــزَ مَكْبُـــولُ

أُنْبِئْـــتُ أنَّ رَسُـــولَ اللهِ أَوْعَـــدَنِي، والعَفْـــوُ عِنْـــدَ رَسُـــولِ اللهِ مَـــأْمُولُ

فكساه رسول الله بردة كان يلبسها، وسمّيت هذه القصيدة لذلك بالبردة، وأصبحت من أشهر قصائد المديح النّبويّ حين مضى الشّعراء في العصور التّالية بتقليدها والنَّسْجِ على منوالها، وفي القصيدة مدحٌ للرسول يدفعنا للوقوف عند معانيه إذ يقول[24]:

إنَّ الرَّسُــولَ لَسَــيْفٌ يُسْتَضَــاء بــه مُهنَّــدٌ مــن ســيوفِ اللهِ مَسْــلولُ

فــي عُصْـبَةٍ مـن قُـرَيْشٍ قَـالَ قـائِلُهُم بِــبَطْنِ مَكَّــةَ، لمَّــا أَسْــلَمُوا زُولُــوا

زَالُــوا، فَمَــا زَالَ أَنْكَــاسٌ، ولَا كُشُــفٌ، عِنْــدَ اللِّقَــاءِ، ولَا مِيْــلٌ مَعَازِيْــلُ

إنَ الشّهرة الواسعة التي حقّقتها هذه القصيدة على أنّها من أفضل ما قيل في المديح النبويّ، تجعلنا نقف في عجب عند قراءتنا أبيات المديح التي تضمّنتها، فمدح كعب بن زهير للنبيّ كان مديحاً عامّاً، لم يختصّ النبيّ به إلا ببيتين اثنين في القصيدة كلّها، حين وصفه بالسّيف الذي يستضاء به، وبالمهنّد المسلول، وحين وصفه بالعفو عندما استعطفه في أوّل القصيدة (والعفو عند رسول الله مأمول)، ثمّ يتوجه المديح كلّه إلى مدح المهاجرين من قبيلته قريش، حتى إنّ هذه القصيدة في قيمها المدحيّة لا تحوي المعاني الإسلاميّة المناسبة للظّرف الجديد كالمدح بالهداية والبشرى والشّفاعة...، ولعلّ مردّ هذا إلى حداثة إسلام كعب، فهذه قصيدة قيلت لحظة إسلامه، أي أنّه لم يَخْبَر قيم الإسلام وتعاليمه بعد، حتى تصدر عنه في شعره، كما أنّه كان بعيداً عن مجتمع المدينة المسلم، فجاء وفي نفسه ما ورثه من الانفعال الفنّي القديم المعتاد، ولا بدّ أيضاً أن نأخذ بالحسبان أنّ إسلام كعب كان غالباً بدافع الخوف لا الاعتقاد، فالإسلام بات مصير المشركين في شبه الجزيرة، وأمرٌ لا مفرَّ منه، أي أنّ مديحه هذا لا يصدر عن قرارةِ نفسه في صدقها الانفعاليّ.

ثمّ لانَتْ نفس كعب وحسن إسلامه، واتّجه إلى عبادة ربّه وتعلّم مبادئ الإسلام، وذهب إلى قومه يدعوهم إلى الدّخول فيه، وبدأ أثر ذلك يظهر في شعره وبدأت القيم الإسلاميّة تتسلّل إلى مدائحه ومنها ما قاله في مدح الأنصار حين صَلُحَ الأمر بينه وبينهم[25]:

مَــنْ سَــرَّهُ كَــرَمُ الحيــاةِ فَــلَا يَــزَلْ ... فــي مَقْنَــبٍ مــن صَــالِحِيْ الأَنْصَــارِ
تَــزِنُ الجِبَــالَ رَزَانَــةً أَحْلَامُهُــمْ ... وَأَكُفُّهُــمْ خَلَــفٌ مــن الأَمْطَــارِ
والبــاذِلِينَ نُفُوسَــهُمْ لِنَبِــيِّهِمْ ... يَــوْمَ الهِيَــاجِ وَقُبَّــةِ الجَبَّــارِ
والمُطْعِمُــوْنَ الضَّــيْفَ حِــيْنَ يَنُــوْبُهُمْ ... مِــنْ لَحْــمٍ كُــوْمٍ كالهِضَــابِ عِشَــارِ
وَالمُنْعِمُــوْنَ المُفْضِــلُونَ إذا شَــتَوا ... والضّــارِبُون عِــلَاوَةَ الجَبَّــارِ
يَتَطَهَّــرُونَ كَأَنَّــهُ نُسُــكٌ لَهُــمْ ... بِــدِماءِ مَــنْ عَلِقُــوا مــنَ الكُفّــارِ

تمتزج في هذه الأبيات قيم المديح الجاهليّة بقيم المديح الإسلاميّة، فيمدح الأنصار بأنّهم كرماء، يطعمون الضّيف من النّاقة الضّخمة، ويتفضّلون بمالهم إذا حلّ الشّتاء والقحط، كما يضربون عنق كلّ شديد قويّ، وهم أتقياء أصفياء متطهّرون، يبذلون نفوسهم في سبيل الدفاع عن رسول الله والبيت الحرام.

ونرى انعكاس هذا الوعي في مديحه الحاكم المسلم بما يناسب المكانة التي حمل أمانتها، والصّفات التي ارتضاها الإسلام والمسلمون فيه، فيقول في مدح عليّ بن أبي طالب[26]:

إنَ عَلِيَّــــاً لَمَيْمُــــونٌ نَقِيْبَتُــــهُ ... بِالصَّــالحَاتِ مــن الأَفْعَــالِ مَشْــهُورُ
صِــهْرُ النَّبِــيّ وخَيْــرُ النّــاسِ مُفْتَخِــرَاً ... فَكُــلُّ مَــنْ رَامَــهُ بــالفَخْرِ مَفْخُــورُ
صَــلَّى الطَّهُــورُ مــع الأمّــيِّ أَوَّلَهُــمْ ... قَبْــلَ المَعَــادِ وَرَبُّ النَّــاسِ مَكْفُــورُ
مُقَــاوِمٌ لِطُغَــاةِ الشِّــرْكِ يَضْــرِبُهُمْ ... حَتَّــى إذَا اسْـتَقَامُوا وَدِيْـنُ اللهِ مَنْصُـوْرُ
بالعَــدْلِ قُمْــتَ أَمِيْنَــاً حِــيْنَ خَالَفَــهُ ... أَهْــلُ الهَــوَى وَذَوُو الأَهْــوَاءِ والــزُّورُ
يــا خَيْــرَ مَــنْ حَمَلَــتْ نَعْــلاً لَــهُ قَــدَمٌ ... بَعْــدَ النَّبِــيِّ لَدَيْــهِ البَغْــيُ مَهْجُــوْرُ

تسيطر القيم الجماليّة الإسلاميّة على جميع الصّفات المدحيّة التي تشكّل مثال القائد المسلم، فعليّ كرّم الله وجهه ميمون مبارك صالح الأعمال، صهر النبيّ، وأوّل من آمن به، يقاتل أهل الشّرك حتى يستقيم الدّين، ويعدل بين النّاس، وهو خيرهم منزلة بعد النبيّ.

هذه أبيات إسلاميّة خالصة، لا تقترب من القيم المدحيّة الجاهليّة، ولا تمتزج بها، صدرت عن شاعر تبنّى كلمة الإسلام ومبادئه.

إنّنا في استقراء ديوان كعب بن زهير، ووقوفنا على قصائده المدحيّة خاصّة، نلحظ التّطوّر الواضح الذي يطرأ على استعماله للقيم، فينتقل من المحافظة على تقاليد المدح الجاهليّ، ثمّ يتدرّج شيئاً فشيئاً في الابتعاد عنها، والغوص في القيم التي طرحها الوجود الإسلاميّ الجديد، إلى أن ينتهي به المطاف إلى المدح الخالص الذي يؤمن به ويناسب العصر، وهو تطوّر طبيعيّ منطقيّ، يختصر تطوّر المرحلة ذاتها وانتقالها من الجاهليّة وأعرافها، مروراً بالخضرمة، وانتهاءً بالإسلام الصّافي.

بَيْدَ أنَّ نظرة بعيدة للنّتاج الشّعريّ في مرحلة صدر الإسلام تكشف لنا أنّ بعضاً من الشّعراء _ وإن كانوا من المخضرمين _ لم يظهر لديهم هذا التّطور المتباين في التّعامل مع المعاني الشّعريّة والقيم الجماليّة بعد إسلامهم، ولم تتمسّك أشعارهم بالتّقليد الجاهليّ القديم رغم أنّهم خبروه، فانتقل النّتاج الفنّيّ لديهم انتقالاً سريعاً من النّمط الجاهليّ إلى النّمط الإسلامي نتيجة لتغيّر الظّروف الفكريّة والنّفسيّة والاجتماعيّة المؤثّرة في الوعي المنتج للإبداع الفنّيّ، فجاؤوا مجدّدين بطريقتهم الشّعرية وأغراضها وقيمها، وأهمّ هؤلاء الشّعراء: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

أمّا حسّان بن ثابت فهو من المخضرمين الأفذاذ الذين قالوا الشّعر في الجاهليّة فأحسنوا، ومدح ملوكاً وأمراءَ كُثُر في بلاط الغساسنة، شأنه شأن أيّ شاعر جاهليّ، لكنّ الإسلام حين أتى هزم في نفس حسّان كلّ ثابت من ثوابت الكفر والجهل، وسارع إلى الإسلام ونبيّه يدافع عنهما، وينصر دعوتهما بشعره، حتى اختاره الرّسول عليه الصّلاة

والسّلام شاعره الأوّل، استعان به في الرّدّ على شعراء المشركين وشجّعه، فكان مجاهد الكلمة، فاضت أشعاره نصرة للدّين ودفاعاً عنه، ردّ بها على كلّ شاعر أفّاك، ودعا إلى إعلاء كلمة الحقّ، كما مدح رسول الله بمدائح تناسب مكانته المقّدسة.

إنّ مدح حسان بن ثابت يصدر عن شاعر متحمّس لنشر الدين، محبّ لله ورسوله، لذلك تتجلّى فيه دائماً النّظرة الإسلاميّة الجديدة لمفهوم الجميل، التي كرّسها الوعي الجماليّ العامّ الذي ساد المجتمع الإسلاميّ، يقول حسّان في مدح رسول الله[27]:

نَبِـــيٌّ أَتَانَـــا بَعـــدَ يَـــأْسٍ وَفَتْـــرَةٍ ... مِـنَ الرُّسُـلِ وَالأوثـانُ فـي الأَرضِ تُعْبَـدُ

فَأَمْسَـــى سِـــرَاجَاً مُسْـــتَنِيراً وَهَادِيَـــاً ... يَلُـــوحُ كَمَـــا لَاحَ الصَّـــقِيلُ المُهَنَّـــدُ

وَأَنْـــذَرَنَا نَـــارَاً وبَشَّـــرَ جَنَّـــةً ... وَعَلَّمَنـــا الإِسْـــلامَ فـــاللهَ نَحْمَـــدُ

إنّ القيم التي جاد بها حسّان بن ثابت في مدح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام قيم تناسب مكانته الإسلامية المقدّسة، فهو مبشِّرٌ بالثّواب، منذِرٌ من العقاب، هادٍ للصّواب، ومعلِّمُ تابعيه مبادئ الدّين القويم.

إنّ هذه القيم لا يمكن أن يُمدَح بها أحدٌ سوى رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، فهو المختار من ربّ العباد، لم يتّصف أحد قبله ولا بعده بمثل هذه الصّفات، يقول حسّان بن ثابت[28]:

أَعْنِـــيْ الرَّسُـــولَ فَـــإِنَّ اللهَ فَضَّـــلَهُ ... عَلَـــى البَرِيَّـــةِ بِـــالتَّقْوى وبِـــالجُودِ

فِينَـــا الرَّسُـــولُ وَفِينَـــا الحَـــقُّ نَتْبَعُـــهُ ... حَتَّـــى المَمَـــاتِ وَنَصْـــرٌ غَيْـــرُ مَحْـــدُودِ

مَـاضٍ عَلَـى الهَوْلِ رَكَّـابٍ لِمَـا قَطَعُـوا ... إذا الكُمَـــاةُ تَحَـــامَوا فـــي الصَّـــنَادِيْدِ

وَافٍ وَمَـــاضٍ شِـــهَابٌ يُسْتَضَـــاءُ بِـــهِ ... بَـــدْرٌ أَنَـــارَ عَلَـــى كُـــلِّ الأَمَاجِيْـــدِ

إنّ القيم المدحيّة التي تضمّنتها الأبيات قيم ذات طابع إسلاميّ، كالاصطفاء والتّفضيل على البشريّة، والحقّ، والنّصر، والنّور الذي أضاء العالمين.

إنَّ التّفرّد الذي أعطاه الله تعالى لنبيّه في الصّفات، والتميّز الذي وهبه إيّاه في المكانة حين حمّله الرّسالة وكلّفه بتبليغها، فرضت على النّفوس إجلالاً وتعظيماً لشخصيته، منعت الشّعراء من مدح غيره بالقيم التي مُدِحَ بها عليه الصّلاة والسّلام، فهي أوصاف اختصّ بها وهو الممدوح الذي لا شبيه له، لذلك كان علينا أن نبحث في القيم المدحيّة التي ترسّخت في ذهن الشّعراء بعيداً عن المديح النّبويّ، حتى نصل إلى النّظرة الجماليّة التي طبعت المديح في صدر الإسلام وصولاً صحيحاً، مختلفاً عن الهالة القدسيّة التي تحيط بمدح النّبي عليه الصّلاة والسّلام، من مثل قوله[29] يمدح الصّحابة الكرام:

إنَّ الـذَّوائِبَ مـن فِهْـرٍ وَإِخْـوَتِهِمْ قَـدْ بَيَّنُـوا سُـنَّةً للنّـاسِ تُتَّبَـعُ
يَرْضَـى بِهَـا مَـنْ كَانَـتْ سَـرِيرَتُهُ تَقْـوَى الإِلَـهِ وبِـالأَمْرِ الـذي شَـرِعُوا
أَعِفَّـةٌ ذُكِـرَتْ فـي الـوَحْي عِفَّـتُهُم لَا يَطْبَعُـونَ وَلَا يُـرْدِيْهُمُ الطَّمَـعُ
أَعْطَـوا نَبِـيَّ الهُـدَى وَالبِـرِّ طَـاعَتَهُمْ فَمَـا وَنَـا نَصْـرُهُمْ عَنْـهُ وَمَـا نَزَعُـوا
إنْ قَـالَ سِيرُوا أَجَـدُّوا السَّـيْرَ جُهْـدَهُمُ أَو قَـالَ عُوجُـوا عَلَيْنَـا سَـاعَةً رَبَعُـوا
مَـازَالَ سَـيْرُهُمُ حَتَّـى اسْـتَقَادَ لَهُـمْ أَهْـلُ الصَّـليبِ وَمَـنْ كَانَـتْ لَـهُ البِيَـعُ
أَكْـرِمْ بِقَـوْمٍ رَسُـوْلُ اللهِ شِـيعَتُهُمْ إذَا تَفَرَّقَـتِ الأَهْـواءُ والشِّـيَعُ

قيلت هذه القصيدة ردّاً على وفد بني تميم الذي قصد النبيّ عليه الصّلاة والسّلام مفاخراً بنسبه وشمائله، فدعا النبيّ حسّان بن ثابت ليجيب شاعرهم الزّبرقان بن بدر[30] فجاء ردّ حسّان بالفخر برهط النّبي من المهاجرين والأنصار، بمدحهم بقيم إسلاميّة تناسب حالتهم التي كانوا عليها من التّقوى والعفّة وطاعة الرّسول، ونصرة دينه، وقتال الكفّار، فهم أكرم النّاس، ويقول حسّان أيضاً في مدح أبي بكر الصّديق، وكان قد بلغ النّبيّ أنّ قوماً نالوا أبا بكر بألسنتهم، فقال له النّبيّ هات ما عندك، فردّ مدافعاً[31]:

إذَا تَـذَكَّرْتَ شَـجْوَاً مِـنْ أَخِـي ثِقَـةٍ فَـاذْكُرْ أَخَـاكَ أَبَـا بَكْـرٍ بِمَـا فَعَـلَا

التَّـــالِيَ الثَّـــانِيَ المَحْمُـــودَ شِـــيمَتُهُ وأَوَّلَ النَّـــاسِ طُـــرًّاً صَـــدَّقَ الرُّسُـــلَا

والثَّـانِيَ اثنَـيْنِ فـي الغَـارِ المُنِيْـفِ وقَـدْ طَـافَ العَـدُوُّ بِـهِ إِذْ صَـعَّدَ الجَـبَلَا

وَكَـانَ حِـبَّ رَسُـولِ اللهِ قَـدْ عَلِمُـوا مِـنَ البَرِيَّـةِ لَـمْ يَعْـدِلْ بِـهِ رَجُـلَا

إنَ مديح أبي بكرٍ في الأبيات مديح مميّز يليق بمكانة الصّديق الخاصّة بين الصّحابة، فهو أقرب الأصحاب للنبيّ عليه الصّلاة والسّلام، وأوّل من آمن به من الرّجال، وكان رفيقه في الهجرة، وصِدِّيقه يوم الإسراء والمعراج حين كذّبه النّاس، فهو أتقى البرايا وأرأفُهَا وأوفاها بعد النبيّ.

إنّ المديح عند حسان بن ثابت بعد إسلامه مديح صادق نابع من ذاته المؤمنة المدافعة عن الحقّ، وقد قدّم الممدوح في قصائده مثالاً يعكس الشّخصية المسلمة بأخلاقها وقيمها.

وإذا اتّجهنا إلى دراسة المديح عند كعب بن مالك لاحظنا التّقارب بينه وبين شعر حسّان بن ثابت، في التزامه الأسلوب الفنّيّ الجديد الذي يتبنّى رسالة الإسلام وتعاليمه، فقد كان كعب صادق الإيمان، صافي العقيدة، وكان من السّبعين رجلاً الذين شهدوا بيعة العقبة الثّانية، ونصر النّبي عليه الصّلاة والسّلام قولاً بشعره، وفعلاً في جهاده في جميع غزواته، عدا غزوة تبوك التي تاب الله عليه في آية من القرآن الكريم نتيجة صدقه ورفضه أن يُبرّرَ كذباً سبب تخلّفه.

إنّ تمسّك كعب بالأخلاق والأصول التي جاء بها الإسلام طبع شعره بطابع مدافع عن المبادئ الإسلاميّة، وناشر لها، حيث يتجلّى في مدائحه دائماً أثر الوعي الجماليّ الإسلاميّ في نظرته للممدوح، فنراه يصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائلا[32]:

رَئِيْسُـــهُمُ النَّبِـــيُّ وَكَـــانَ صُـــلْبَاً نَقِـــيَّ القَلْـــبِ مُصْـــطَبِراً عَزُوفَـــا

رَشِـــيدُ الأَمْـــرِ ذو حُكْـــمٍ وَعِلْـــمٍ وَحِلْـــمٍ لـــمْ يَكُـــنْ نَزِقَـــاً خَفِيفَـــا

نُطيـــــعُ نَبِيَّنـــــا ونُطيـــــعُ رَبَّـــــاً هُـــو الـــرَّحْمَنُ كَـــانَ بِنـــا رَؤُوفَـــا

وقال يوم بدر[33]:

فِيْنَـــا الرَّسُـــولُ شِـــهَابٌ ثُـــمَّ يَتْبَعُـــهُ نُـوْرٌ مُضِـيءٌ، لَـهُ فَضْـلٌ عَلَـى الشُّهُبِ

الحَـــقُّ مَنْطِقُـــهُ والعَـــدْلُ سِـــيْرَتُهُ فِمِـــنْ يُجِبْـــهُ إلِيْـــهِ يَـــنْجُ مِـــنْ تَبَـــبِ

يَمْضِـي وَيَـذْمرنَا عِلِـى غَيْـرِ مَعْصِـيَةٍ كَأَنَّـهُ البَـدْرُ لَـمْ يُطْبَـعْ علـى الكَـذِبِ

بَـــــدَا لَنَـــــا فَاتَّبَعْنَـــــاهُ نُصَـــــدِّقُهُ وَكَـــــذَّبُوهُ فَكُنَّـــــا أَسْـــــعَدَ العَـــــرَبِ

إنّ القيم التي تضمّنتها الأبيات هي الحقّ في المسيرة، والعدل في الحكم، والحضّ على التّقوى والهداية، والنّقاء، والرّشاد، والصّدق، فكان النّور والبدر والشّهاب الذي أطاح نوره جميع الشّهب.

وإذا أردنا استقراء الأبيات التي مدح بها كعب أصدقاءه من الصّحابة الكرام وجدنا الأمر في غاية الصّعوبة، إذْ لا توجد في ديوانه أبيات قيلت في مديح شخص غير الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، على عكس أبيات الرّثاء التي توجد كثيراً في شعره، وهي سمة عامّة في هذا العصر، وليست عند كعب فقط، فقد كان الوضع الفنيّ حينئذٍ مشغولاً بوصف الغزوات ونشر دين الإسلام، ولم يكن لدى الشّاعر الفراغ النّفسيّ الذي يدفعه لمديح الصّحابة، بالإضافة إلى غياب الدّافع لذلك.

وما ينطبق على حسّان بن ثابت وكعب بن مالك من الأحكام الجماليّة التي طبعت شعرهما وتصرّفهما في القيم، ينطبق على عبد الله بن رواحة في أسلوبه الفنّيّ، لاسيّما وقد عاش الشّعراء الثّلاثة حياة متشابهة وعاصروا أحداثا واحدة، فقد كان ابن رواحة أيضاً شاعراً أنصاريّاً، وكان سيّداً في قبيلته؛ الأوس، ومن أشرف أنسابها، وكان كذلك من الأوائل الذين دخل الإسلام قلوبهم، وتمّ اختياره كأحد النّقباء يوم العقبة الثانية.

وكما كان لسان حال قبيلته في الجاهليّة، يذود عنها ويفتخر بها كان هذا حاله في الإسلام، لكن في دفاعه عن الإسلام والرّدّ على الكافرين، وحمل على عاتقه أيضاً همّ

الذّود عن ديانته بسيفه وجهاده وبلائه في الغزوات والمعارك، حتى اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم قائداً لجيش المسلمين في غزوة مؤتة، بعد زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وهي الغزوة التي استشهد فيها عام أحد عشر للهجرة.

وشعر ابن رواحة شعر صادق ملتزم، صادر عن نفسه الصّافية المعتنقة الإسلام، المستظلّة بمبادئه، وهو في مديحه يُثني على المناقب التي جمّلها الإسلام، ويحضّ عليها، ويصوّر رسولَ الله هادي الأمة وشفيعها، يقول[34]:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إذا انشَقَّ مَعْروفٌ مِن الصُّبْحِ سَاطِعُ

أَرَانَا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

يَبِيْتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَن فِرَاشِهِ إذَا اسْتُثْقِلَتْ بِالكَافِرِينَ المَضَاجِعُ

وَأَعْلَمُ عِلْمَاً لَيْسَ بِالظَنِّ أنَّنِي إلَى اللهِ مَحْشُورٌ هُنَاكَ وَرَاجِعُ

إنَّ رَسُولَ الله هو الهادي المنير الذي بيّن طريق الحقّ بآيات القرآن، وهو الذي أفنى حياته في سبيل أمته، يجافي النّوم والبرد، فالله يعلم كرمه وتُقاه، يقول ابن رواحة في أبيات أخرى[35]:

تَحْمِلُهُ النَّاقَةُ الأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً بِالبُرْدِ كَالبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ الظُّلَمِ

وفي عِطَافَيْهِ أو أثْنَاءِ بُرْدَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ دِيْنٍ ومِن كَرَمِ

وشعر ابن رواحة، خاصّة مديحه، قليل جدّاً في ديوانه، ربّما لأنّه كان منشغلاً بالمهام التي أوكلت إليه في سبيل الدّعوة، كما أنّه استشهد مبكّراً من عمر الحياة الإسلاميّة.

خاتمة البحث: لقد كان للإسلام وظيفة مهمّة في تغيير شكل الواقع الفنّيّ، حين طرح تعاليم ومفاهيم جديدة غيّرت إلى حدٍّ كبير مضمون القيم الجماليّة المدحيّة الدّارجة في العصر الجاهليّ، فأفرز قيماً ترتبط بالإسلام وتعبّر عنه، وقد تجلّى هذا الاختلاف بين

قصائد المديح التي وُجِّهت إلى الممدوحين قبل الإسلام كما عند الأعشى مثلاً الذي مدح ملكاً نصرانيّاً بالتّقوى والطّاعة، وبين قصائد المديح التي صاغها شعراء صدر الإسلام في مديح النبيّ عليه الصّلاة والسّلام.

إنّ المديح في مرحلة صدر الإسلام ينفرد بوضع خاص، وأوّل ما نصادفه في دراسته واستقراء معانيه في دواوين الشعراء؛ أنّه شعر قليل، ويعود هذا لأسباب عدّة أهمها: أنّ الحركة الفكريّة عند الشّعراء كانت مشغولة بتلقّي تعاليم الإسلام، وفهمه، فركدت حركة الشّعر عامّة، ثمّ قلّ شعر المديح خاصّة عندما تقدّم عليه وصف الغزوات والفتوحات والدّعوة إلى الله، كما كان لغياب الغاية أثرها الكبير في قلّته، إذْ لا غاية تُرتجى عند الشّاعر من المديح، فهو لا يسعى لعطية أو يتكسّب لمال، فتوقفت وظيفة الشعر بوصفها مهنة يتكسّب الشاعر منها رزقه لأنّ المناخ الفنّي السّائد في المجتمع الإسلاميّ، وربطه الفنّ بالوظيفة الأخلاقيّة، وبمتطلّبات الدّعوة للدّين الجديد لم يكن يسمح بذلك.

كما أنّ الأبيات التي تُصاغ في المديح بما يتضمّنها تعداد الخصال والمناقب لم تأت في قصيدة خاصّة بالمديح، وإنما جاءت في سياق أي غرض آخر، كوصف الغزوات والفتوحات مثلاً أو الرّدّ على الكفّار، فيتطرّق الشّاعر خلالها لمدح النّبي أو الصّحابة استجابةً للحالة الشّعريّة لديه، فلم يقف الشّاعر الإسلاميّ يوماً أمام الممدوح ويخاطبه بأسمى معاني المديح، ولم يُعهد هذا أصلاً في المجتمع المدنيّ زمن الرّسول وخلفائه الرّاشدين، فاختلفت الكيفيّة التي قيل بها هذا الشّعر، وأوّل اختلافاتها اختفاء حضور "البلاط" في شعر مرحلة صدر الإسلام بوصفه المنبر الذي تصاغ فيه معاني المديح، ومكانا شاقَ الشعراءَ للوصول إليه سابقا، وثانيها تغيّر لغة هذا الشعر كاختفاء ضمير المخاطب في هذه الأبيات واستبداله بضمير الغائب حتّى وإن كان الممدوح يقف بجوار الشّاعر.

وقد ظهر في شعر هذه المرحلة بعض الاختلاف في أساليب الشعراء المدحيّة، فمنهم من بقي محافظاً على التقليد الجاهليّ، رغم إسلامه، مثل الحطيئة، فلم يظهر أثر الإسلام في شعره، ومهم من جاءت معانيه تقطر إيماناً ودفاعاً عن الإسلام ونبيّه، مثل

حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، بينما تدرّج أسلوب كعب بن زهير من التّقليد الجاهليّ حتى التقليد الإسلامي شيئاً فشيئاً.

إنّ ما يقف وراء معاني المديح هو التّعبير عن المحبّة أو الاعتزاز لوجود الرّسول في حياة الشّاعر، وهذا ما يجعل فنّ المديح النّبويّ فنّاً مستمرّاً، فرغم وفاته عليه الصّلاة والسلام إلّا أنّ ذكره سيبقى حيّاً في النّفوس، ولأجل هذا حافظ هذا الفنّ على اسمه (المديح النبويّ) ولم يتأثر بوفاته فيكون (الرّثاء النبويّ).

إنّ المديح النبويّ قيل في حياة النّبيّ وبعد وفاته أيضاً، وهو دليل على وعي العربيّ المسلم لمفهوم الجليل، فرسول الله هو المصطفى من ربّ العباد، وهو المبشّر والنّذير، ويعكس أيضاً الوعي بمفهوم الجميل في رحمته وهدايته وعفوه.

وتدور القيم الجماليّة في مرحلة صدر الإسلام في نطاق المعاني التي أحدثها الإسلام بمجيئه، والتي تناسب الحالة التي كان عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنجد قيمة التّبشير والإنذار والهداية من الضّلال، والإنقاذ من الهلاك، والدّعوة إلى الّتقى والرّشاد وما يدور في فلك هذه المعاني ظاهرةً في جميع أبيات الشعراء، بينما تكاد صفة النور أن تكون قاسماً مشتركاً بين كل أشعار المديح النبويّ، فرسول الله نور أو بدر أو شهاب.

الحواشي:

[1] مجدي وهبه، وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والآداب**، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 301.

[2] فؤاد المرعي، **الجمال والجلال: دراسة في المقولات الجمالية**، دار طلاس، دمشق، 1991م، ص 13

[3] انظر: حسين الصّديق، وسعد الدين كليب، **مدخل إلى الفكر الجمالي عند العرب المسلمين**، منشورات جامعة حلب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 2006، ص 72.

[4] حسين الصّديق، **فلسفة الجمال ومسائل الفنّ عند أبي حيّان التوحيدي**، دار القلم العربي، حلب، ط1، 2003م، ص 98.

[5] الفارابي، **السياسة المدنية**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964م، ص 46.

[6] ، نويجم عبد العزيز، ابن حميدة إسماعيل، **الفن والجمال بين الفكر الإسلاميّ والفلسفة الغربية**، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2017، ص 35.

[7] انظر: حسين الصديق، **مدخل إلى الفكر الجمالي عند العرب المسلمين**، ص 155.

[8] سعد الدين كليب، **البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1997، ص 145

[9] المرجع السابق، ص 145

[10] شوقي ضيف، **البطولة في الشّعر العربي**، دار المعارف، القاهرة، ط 2، د ت، ص 9.

[11] انظر: وهب روميه، **بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي**، دار سعد الدين، دمشق، 1997م، ص170.

[12] الأعشى (ميمون بن قيس)، **ديوان الأعشى الكبير**، شرح وتحقيق: محمد حسين، مؤسسة الرسالة، ط2، د ت، 1968م، ص 53. أيبليّ: صاحب أيبل وهي العصا التي يدقّ بها الناقوس، الهيكل: موضع في صدر الكنيسة يقرّب فيه القربان، صلّب: صوّر فيه الصليب، صار: سكن، جأر بالدّعاء: تضرّع.

[13] وقد كثُرت الآراء حول صحّة هذه القصيدة، وصحّة الروايات التي جاءت في وفادة الأعشى على النبي صلى الله عليه وسلم، (انظر: أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين)، **الأغاني**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج9، ط1، 1936م، ص 126. وانظر أيضا: عبد القادر البغداديّ، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تح: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، ط2، 1979م، ص 176)، وممّا يجعلنا نميل إلى عدم نسبة هذه القصيدة إلى الأعشى أنّه يذكر تحريم الأنصاب في أحد أبياتها: (انظر: ديوان الأعشى الكبير، ص 137)

وَذَا النُّصُـــبَ المَنْصُـــوبَ لَا تَنْسُـــكَنَّهُ وَلَا تَعْبُـــدِ الأَوْثَـــانَ واللهَ فَاعْبُـــدَا

وفي هذه الرّوايات أنّ قريشا حاولت ثَنْيَ الأعشى عن قصد النبي في يثرب وذلك بإخباره أنّه يحرّم شرب الخمر، فكيف علم الأعشى أنّ الإسلام يحرّم النصب ولم يعلم أنّه يحرّم الخمر مع أنّ تحريمهما نزل في آية واحدة، قال تعالى: (يا أيُّها الذين آمنوا إنّما الخَمْرُ وَالمَيْسَرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون). (المائدة /90)

[14] يوم الصفقة: يوم للعرب مع الفرس، اتفق فيه هوذة بن علي مع كسرى على الإيقاع ببني تميم في حصن المشقّر وإبادتهم لأنهم قتلوا بعض أساورة كسرى وسلبوهم عيرهم، انظر: أيام العرب في الجاهليّة، ص 2.

[15] الأعشى، **ديوان الأعشى الكبير**، ص 107، 109، 111. غير متّئب: لا يستحي، فعلها اتأب أي استحى، الطبع: الوسخ الشديد من الصّدأ، ضرع: ذلّ، الوثاق: الرّباط والقيد، وكذلك الغلّ، الفصح: من أعياد النّصارى، أسدى وسدّى: قدّم.

[16] يحيى الجبوري، **الإسلام والشّعر**، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، 1964م، ص 75.

[17] انظر: وهب روميه، **بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي**، ص 193 وما بعدها.

[18] وهب روميه، **بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي**، ص 277.

[19] الحطيئة (جرول بن أوس)، **ديوان الحطيئة**، مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص 69. متلاف: يُتلف ما عنده، ينفقه ولا يدّخره، تهلّل: أشرق وجهه للسرور بالعطيّة، تعشو: أي تجيء على غير بصر ثابت فتهدي بناره.

[20] المصدر السابق، ص 131. المنون: الدهر، أصيل اللبّ: ثابت، العروف: الصبور على نوائب الأيام، اللّبّ: العقل، الإدْلَاج: سَيْر الليل كله، فخمة: ضخمة، الشهباء: الكتيبة، الكشوف: الناقة التي تُضْرَب في كلّ سنة، الماذيّ: صفوة الحديد، وقوله: أولاد النعام: أراد كبيض النعام لكن فلم يمكنه، الكثيف: الغليظ.

[21] سعيد بن العاص: هو سعيد بن العاص القرشيّ، من أشراف مكة، ولي الكوفة في عهد عثمان، غزا طبرستان وفتحها.

[22] انظر: شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، دار المعارف، مصر، ط 7، ص 84 – 85.

[23] كعب بن زهير، **ديوان كعب بن زهير**، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م، ص 60. بانت: فارقت، متبول: متيّم، مذلّل بالحبّ، لم يجز: لم يجد من يفديه، مكبول: أسير مقيّد.

[24] المصدر السابق، ص 67. يُسْتَضَاءُ به: يُهْدَى به، المهنّد: المنسوب إلى الهند، وهو أجود السيوف عند العرب، العصبة: الجماعة، قائلهم: أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، زولوا: أي هاجروا من مكة إلى المدينة، وإنّما خصّ قريشا بالذّكر لأنّ أغلب المهاجرين كانوا منها، الأنكاس: الواحد: نكس وهو الضعيف الجبان، كشف: الواحد: أكشف وهو من لا ترس له، أو هو

الشجاع الذي لا ينكشف في الحرب: ميل: الواحد: أميل، من لا سيف له، المعازيل: الواحد: معزول، من لا سلاح له.

[25] المصدر السابق، ص 19، 20، 21. المقنب: الجماعة من الخيل تجتمع للغارة، الهياج: الحرب، قبة الجبار: أي بيت الله الحرام، ينوبهم: يأتيهم أو ينتابهم، الكوم: الواحدة: كوماء وهي الناقة الضخمة السنام، العشار: الواحدة: عشراء وهي التي أتت عليها عشرة أشهر من حملها، شتوا: دخلوا في الشّتاء، العلاوة: العنق، الجبار: الشديد القويّ، النسك: ما يذبح في الحرم، علقوا: وقعوا في الشباك.

[26] المصدر السابق، ص 41. النقيبة: السجية والطبع، الطهور: أراد عليا رضي الله عنه، الأمّي: الرسول عليه الصَلاة والسلام، حتى استقاموا: أي ثابوا إلى رشدهم.

[27] حسّان بن ثابت، **ديوان حسان بن ثابت**، شرح: عبد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994، ط2، ص 54. الصقيل المهند: السيف، أنذرنا: حذرنا وعلمنا.

[28] المصدر السابق، ص 55. الكماة: جمع كميّ وهو الشجاع أو لابس السلاح لأنه يكمي نفسه أي يسترها بالدروع، الصناديد: الشجعان والدواهي، الأماجيد: السادة الأشراف.

[29] المصدر السابق، ص 152–153. الذوائب: الأشراف، فهر: أصل قريش، يرديهم: يهلكهم، عوجوا: ميلوا، ربعوا: أقاموا، استقادوا لهم: خضعوا، الشّيع: المناصرون

[30] الزبرقان بن بدر: هو الحصين بن بدر التميميّ، أسلم مع وفد بني تميم في عام الوفود.

[31] ديوان حسان بن ثابت، ص 179. الشجو: الحزن، الحِبّ: الصاحب الأمين والمحبوب.

[32] **ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ**، تح: سامي العاني، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، د ت، ص 236. النّزق: كثير الطيش والخفّة.

[33] المصدر السابق، ص 174، 175. تبب: خسران وهلاك، يذمرنا: يحضنا ويدفعنا، لم يطبع: لم يخلق.

[34] **ديوان عبد الله بن رواحة**، د. وليد قصاب، دار العلوم للطباعة والنشر، ط1، 1982م، ص 162.

[35] المصدر السابق، ص 164. الأدمة في الإبل: لون مشرّب سوادا أو بياضا، فهو آدم، المعتجر: الملتفّ، من اعتجر الرّجل، إذا لفّ عمامته على رأسه، جلّى: كشف.